

The reasons for the spread of the Maliki school of legal thought in the Islamic Maghreb

mouad.amrani@yahoo.fr



ملخص

ويتم التطرق إلى ثلاثة عناصر أولها التعريف بالإمام مالك بن أنس، وثانيها لمحة عن دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب الإسلامي وفي الأخير عرض أهم الأسباب لانتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: المذهب؛ المالكية؛ المغرب الإسلامي؛ أسباب؛ انتشار.

Abstract

This research includes the answer to a question about the spread of the Maliki school of thought in the countries of the Islamic Maghreb and its survival to this day despite the presence of many Sunni and non-Sunni Islamic school. Three elements are addressed, the first of which is the definition of Imam Malik bin Anas, the second is an overview of the entry of the Maliki school into the Islamic Maghreb, and in the end the most important reasons for the spread of the Maliki school of legal thought in the Maghreb are presented.

Keywords: Doctrine; Malikism; Islamic Maghreb; Causes of spread.

* المؤلف المراسل.

مقدمة

لقد عرف المغرب الإسلامي عدة مذاهب إسلامية على مر تاريخه، وإن كان الإسلام في هذه المنطقة خلال القرن الأول للهجرة سنيا خالصا، إلا أن الحال تغير مع بداية القرن الثاني للهجرة إذ دخلت إلى بلاد المغرب مذاهب إسلامية متنوعة سنية وغير سنية نذكر منها المذهب الخارجي الصفري والمذهب الإباضي وهو مذهب الدولة الرستمية، أما المذهب الشيعي الإسماعيلي وهو مذهب الدولة الفاطمية فقد أصبح هو السائد منذ نهاية القرن الثالث للهجرة.

كما عرف المغرب الإسلامي مذاهب سنية متعددة منها المذهب الحنفي والمذهب الشافعي و المالكي وغيرها من المذاهب الأخرى، وانطلاقا من أواسط القرن الخامس للهجرة أصبح المذهب المالكي هو المذهب السائد والرسعي لبلاد المغرب الإسلامي، وهذا بعد صراع طويل مع عدة مذاهب، والسؤال المطروح هنا هو: لماذا انتشر المذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي وبقي سائدا إلى يومنا هذا على الرغم من وجود فسيفساء من المذاهب الإسلامية سنية وغير سنية؟

وفي هذه المداخلة سنجيب عن هذا الإشكال وذلك بالتطرق إلى ثلاثة عناصر أولها التعريف بالإمام مالك بن أنس، وثانها لمحة عن دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب الإسلامي وفي الأخير نعرض أهم الأسباب لانتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب.

التعريف بالإمام مالك بن أنس:

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان ابن حشد الأصبحي، ولد بالمدينة واختلف في تاريخ مولده بين 93هـ و95هـ، تلقى العلم على يد كثير من العلماء، نذكر منهم بن شهاب الزهري وربيعة الرأي، وبن هرمز وغيرهم، وتذكر المصادر أنه أخذ العلم عن تسعمائة شيخ ثلاثمائة من التابعين وستمائة من تابعيهم، وقد كان مالك بن أنس طويلا عظيم الهامة أصلعا، أبيض الرأس واللحية، شديد البياض إلى الشقرة أعين، أزرق العينين، ومن أشهر مؤلفاته كتابه الموطأ، كتابه في التفسير لغريب القرآن، كتاب

المجلسات وغيرها، وفي سنة 179هـ توفي الإمام مالك بمرض سلس البول⁽¹⁾.

دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب :

كان المغاربة في صدر الإسلام على مذهب السلف من الأمة و اعتقادهم، وهو المذهب الحق إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية لأول المائة الثانية من الهجرة⁽²⁾، ومن المعروف تاريخياً أن المذهبين السنيين الأوزاعي والحنفي كانا أسبق المذاهب السنية دخولا إلى إفريقية والأندلس، وظل المذهبان معمولاً بهما في بلاد المغرب مدة من الزمان إلى أن بدأ طلاب هذه البلدان يرحلون إلى المشرق⁽³⁾.

وقد كان في القيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي، كما دخلها شيء من مذهب داود الظاهري، ولكن كان الغالب عليها مذهب مالك وأبي حنيفة إلى أن جاءت دولة الأغالبة الذين مالوا إلى الأخذ بمذهب الأحناف وآثروهم بالرياسة والقضاء، ثم العبيديون من بعدهم، حتى جاء المعز بن باديس، فحمل الناس من جديد على المذهب المالكي⁽⁴⁾.

وفي هذا الشأن يقول القاضي عياض «و أما إفريقيا وما وراءها من المغرب، فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس، والهللول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات، وغيرهم بمذهب مالك، وأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه، ورفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا»⁽⁵⁾.

ومنه فإننا نرى أن مذهب الإمام مالك قد انتشر في غرب البلاد الإسلامية، ولم ينتشر إلا قليلا في شرقها ببلاد العراق وما وراءها وذلك لإقامة كثير من تلاميذه بمصر وتونس، وسرى منهما إلى كل البقاع في غرب البلاد⁽⁶⁾.

أسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب:

1- شخصية الإمام مالك صاحب المذهب:

عرف الإمام مالك بتمسكه بالسنة ومحاربة البدع، وتشبته التام بآثار

الصحابة والتابعين، واستجماع أدوات الإمامة، وهذا ما دفع المغاربة إلى أن يقلدوا علمه، وينقادوا لفكره، ويقتنعوا بسلامة مذهبه، إضافة إلى ثناء الناس عليه وإعجابهم بحسن سيرته والتزامه الصارم باتباع نصوص الكتاب والسنة والقياس الواضح وبعد فكره عن الإغراب والافتراض في ميدان الاجتهاد⁽⁷⁾.

2- الدافع الديني:

يقصد بالدافع الديني الآثار الواردة في السنة النبوية التي تشهد للإمام مالك بالسبق في مجال العلم والفقه والتي يؤخذ منها الترغيب في اتخاذ الإمام مالك مرجعا وإماما، والآثار التي تشهد له بالسبق متعددة، منها ما رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والذهبي وسلم به وزكاه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة»⁽⁸⁾.

ولقد أعطي لهذا الحديث تفاسير مختلفة، إلا أن جمهور العلماء يرون أن المقصود بالحديث هو الإمام مالك⁽⁹⁾، وقال القاضي عياض في هذا الصدد: «حق على طالب العلم، أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليعتمد على مذهبه، ويسلك في التفقه سبيله، وها نحن نبين أن مالكا رحمه الله هو ذاك للأثر الوارد في عالم المدينة التي هي داره...»⁽¹⁰⁾.

3- القوة الذاتية التي اكتسبها المذهب المالكي:

وذلك من خلال اعتماده النص أو الأثر، وإسهام جند الحجاز ذلك أن معظم جيوش الفتح كانت تتكون من الحجازيين، والشاميين، وكان هؤلاء الجنود يعودون إلى الحجاز والشام لزيارة ذويهم وتأدية فريضة الحج، فساعد ذلك على انتقال مذهب إمام دار الهجرة مالك⁽¹¹⁾.

4- اهتمام الإمام مالك بالطلبة المغاربة وتقريبهم له:

لقد كان الإمام مالك يولي اهتماما خاصا بالطلبة المغاربة، وهذا لجليلهم إلى مذهبه، ولحثهم على نشره ببلادهم، وأفضل مثال على ذلك، أنه لما قدم إليه عبد الله بن فروخ أقعده بأحسن المقاعد بجنبه ونفس الشيء مع عبد الله بن

غانم، حتى قيل: «شغله المغربي عنا» كما كان يوصيهم بنشر مذهبه، بل كان بينه وبين المغاربة مراسلات⁽¹²⁾.

ولعل هذا الاهتمام الخاص من الإمام مالك للطلبة المغاربة يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف التي كان يمر بها المغرب، إذ شهد هذا الأخير عدة تيارات دينية، صفرية، إباضية، معتزلة ...

5- قوة علماء المذهب المالكي ببلاد المغرب:

إن قوة فقهاء المذهب المالكي ببلاد المغرب تعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار هذا المذهب في هذه المنطقة، ونذكر من بينهم علي بن زياد صاحب الرواية المشهورة للموطأ، حيث قال عنه القاضي عياض: «إنه أول من فشر لأهل المغرب قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، وقد كان دخل الحجاز والعراق في طلب العلم، وهو معلم سحنون الفقه»⁽¹³⁾.

كما نذكر من بين الطلبة أيضا ابن أشرس الأنصاري، البهلول بن راشد، أبو علي شقران بن علي القيرواني، أبو محمد عبد الله فروخ الفارسي القيرواني، أبو محمد عبد الله بن عمر بن غانم الرعيي، أسد بن الفرات ... وهؤلاء كلهم تتلمذوا لمالك، وأخذوا عنه مباشرة فلما عادوا إلى بلادهم أخذوا ينشرون علمه وفقهه بين الناس، وذلك بالتدريس والفتيا، والقضاء وغيرها، ولم ينتقل الإمام مالك إلى جواربه حتى كانت مدرسته في الأندلس وإفريقية من أقوى المدارس في المملكة الإسلامية وأشدّها استمساكا بأرائه وتعصبا لها.⁽¹⁴⁾

6- رحلة المغاربة إلى الحجاز:

غالبا ما كان المغاربة يقصدون بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، ويعتبر هذا الأخير مؤتمرا سنويا يجتمع فيه المسلمون من مختلف الأقطار، ثم يلاقون عالم المدينة المشهورة وهو الإمام مالك حيث يستمعون منه ويلازمونه الأشهر وحتى السنوات ثم يعودون لبلادهم لنشر ذلك العلم⁽¹⁵⁾.

وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون «وأما مذهب مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره

إلا في القليل، كما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك بن أنس وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته»⁽¹⁶⁾.

7- تشابه البيئة بين الحجاز وبلاد المغرب:

وهذا الرأي ذهب إليه ابن خلدون أيضا، حيث كان يرى أن البداوة كانت غالبية على سكان بلاد المغرب والأندلس، ولم يكن لهم نصيب من الحضارة مثل سكان العرق فمالوا إلى أهل الحجاز بمناسبة البداوة، وفي هذه المسألة يعلق ابن خلدون قائلا « كانت غالبية-أي البداوة- على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة، التي لأهل العرق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة»⁽¹⁷⁾.

ولقد أحدث رأي ابن خلدون هذا جدلا كبيرا بين الكتاب والمؤرخين، فمنهم من يرى أن البيئة لا تؤثر في اعتناق الناس للمذاهب، بدليل أن المذهب المالكي لم يحافظ على مكانته في بلاد الحجاز وهي المنبع والأصل⁽¹⁸⁾.

أما خالد كبير علال فيرى بأن هذا التعليل غير صحيح أيضا، لأن المغرب قد شهد مذاهب أصولية وفروعية كثيرة، لم يكن للبداوة دخل في انتشارها فيه، ونافست المذهب المالكي بقوة وتغلبت عليه مرارا، منها المذهب الإباضي والصفري والإسماعيلي، وقد تمكنت هذه المذاهب من تكوين دول لها، وكانت ظاهرة زمن قيام دولها، فهذه المذاهب انتشرت بفضل دعائها وسياستها، واحتضان كثير من المغاربة لها، ولا دخل للبداوة في ذلك⁽¹⁹⁾.

ولو كان لعامل البداوة أثر يذكر في انتشار المذهب المالكي، لكان من الأولى أن ينتشر أساسا بالجزيرة العربية، والمناطق البدوية الأخرى بالشرق، قبل أن ينتشر بالمغرب، أو ينتشر بها كلها على حد سواء، لكن هذا لم يحدث، فقد ظل المذهب المالكي قليل الانتشار بالجزيرة العربية وبادية العراق والشام وفارس وخراسان وخوارزم، بالمقارنة إلى المذهبين الشافعي والحنفي، وهذه الحقائق معروفة

متواترة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا⁽²⁰⁾.

8- ملائمة المذهب المالكي لطبيعة المغاربة:

المذهب المالكي كما هو معروف عنه، مذهب عملي يعتمد بالواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ففقهه عملي أكثر منه نظري، يتماشى مع الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلف أو تعقيد، وأهل المغرب بطبعهم يميلون إلى البساطة والوضوح ويفرون من النظريات المتطرفة والتأويلات البعيدة المتكلفة، فمذهبه خلا من تداخل الآراء وظل بعيدا عن الشوائب التي تسربت إلى الدين من الأمصار الأخرى نتيجة اختلاف الناس باختلاف مذاهمهم وأنظمتهم السياسية والفكرية والعقدية، فتربى في نفوسهم نفور من كل تخريج أو تأويل، ومن ثم ابتعدوا عن أصحاب الرأي خوفا من الانزلاق في مهاوي الضلالات⁽²¹⁾.

9- طول حياة الإمام مالك:

من العناصر التي جعلت تأثير الإمام مالك واسعا ومنتشرا هو طول حياته، حيث أتاح له هذا الامتداد في العمر أن يستمر في أداء رسالته العلمية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة الإمام أبي حنيفة (ت 150هـ) وثلاث وعشرين سنة بعد وفاة الأوزاعي (ت 157هـ)، وبعد عشرين سنة من وفاة الإمام سفيان الثوري (ت 161هـ)، وهذه الميزة أتاح له مزيدا من الفرص لاشتهار مكانته العلمية وانتشار أتباع مدرسته، وذيوخ خبره في جميع البلاد الإسلامية فقصده العلماء من كل مكان⁽²²⁾.

10- مؤلفات الإمام مالك (الموطأ):

يعتبر الإمام مالك أول من ألف للناس كتابا في الحديث الصحيح فالموطأ من أهم العوامل في انتشار المذهب المالكي في مشارق الأرض ومغاربها، فلقد أحدث تأليفه شهرة كبيرة لمذهب الإمام مالك في عرض البلاد، وهذه الشهرة دفعت العلماء وطلبة العلم إلى الرحلة للإمام مالك لأخذه عنه، فرحل إليه أكابر علماء المغرب وإفريقيا والأندلس، كابن زياد، ويحيى ابن يحيى الليثي⁽²³⁾.

11- قدسية المدينة المنورة ومكانتها العلمية:

تعتبر المدينة المنورة دار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولديها مكانة خاصة لدى المسلمين، فقد كانت دار علم الإسلام في القرنين الأول والثاني الهجريين، وعلماءها هم قدوة أهل الدين والأثر وإتباع السنة⁽²⁴⁾.

12- العامل السياسي:

يعتبر السلطان من أهم العوامل في انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب⁽²⁵⁾ وذلك من خلال الدعم السياسي الذي تلقاه المذهب من دول حكمت المغرب، فقد ظل في تنافس ونزاع مع المذهب الصفري والإباضي والإسماعيلي والحنفي لمدة طويلة، ثم تغير الحال لصالحه عندما أسقط العبيديون الدولتين الخارجيتين الرستمية والمدارية، وعندما خرجوا هم من المغرب إلى القاهرة نحو سنة 360هـ، تركوا خلفاءهم الزيريين بالمغرب، الذين مالوا إلى المذهب السني، وأيدوا المذهب المالكي⁽²⁶⁾.

وفي سنة 434هـ فرض بنو زيري المذهب المالكي على الناس بالقوة، وضيّقوا على المذاهب الأخرى، وكذلك المرابطون، اتخذوا المذهب المالكي مذهباً رسمياً لدولتهم، والأمر نفسه فعلته الدول التي حكمت المغرب بعد زوال دولة الموحيدين سنة 668هـ، التي ضيّقت على المالكية- فهذا العامل السياسي الحاسم هو الذي جعل المغرب يصبح مالكيًا⁽²⁷⁾.

وهكذا فإن انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي تضافرت فيه عدة عوامل منها ما يتعلق بالإمام مالك في حد ذاته وكذا البيئة التي نشأ فيها، ومنها ما يعود إلى المغاربة في حد ذاتهم وإلى طبيعة بيئتهم، ويبقى في الأخير العامل السياسي من أهم العوامل التي ساهمت وبقوة في انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب وبقائه شامخاً ومستمراً إلى يومنا هذا.

- الهوامش:

1. مالك بن أنس، الموطأ، تح: كامل محمد عويضة، ط1، الجزائر: مكتبة التقوى، 2001، ص 21، 34.
2. السلاوي أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، (د.ط)، (د.س) ج 1 ص 136-.

3. عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي، ط1 1993، ص 11-.
4. عمر الجيدي، مرجع سابق، ص-18- ولمعرفة المزيد حول هذه المذاهب التي كانت منتشرة ببلاد المغرب ينظر: إسماعيل سامعي، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافة في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري (8-11م)، الجزائر (عين مليلة)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2006 م، ص 22-39.
5. القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى، ترتيب المدراك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، ط1، أحمد بكير محمود، بيروت، مكتبة الحياة، 1932، ج1، ص398.
6. أبو زهرة محمد، محاضرات في تاريخ المذاهب الفقهية، مطبعة المدني، (د-ط)، (د،س) ص 423
7. عمر الجيدي، مرجع سابق، ص35.
8. محمد عز الدين الغرياني، طرابلس (ليبيا): منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2010م.
9. الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تح: محمد أسعد طلاس، مصر: دار المعارف.
10. القاضي عياض، مصدر سابق، ج:1، ص84.
11. العبادي مختار، تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1978.
12. نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي، تونس 2004.
13. القاضي عياض، مصدر سابق، ج3، ص80.
14. عمر الجيدي، مرجع سابق، ص 16.
15. عمر الطاهر نابي عمر "أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب" في مجلة الرسالة، العدد 03، السنة 05، البليدة، 2007، ص70.
16. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدسة، الدار البيضاء: دار ومكتبة الهلال، 1983م، ص 245.
17. المصدر نفسه، ص285.
18. نجم الدين الهنتاتي، مرجع سابق، ص68.
19. أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدمة، دراسة نقدية، تحليلية هادفة، ط1، الجزائر، البليدة، دارالإمام مالك، 1426هـ/2005م، ص117.
20. المرجع نفسه، ص 117.
21. عمر الجيدي، مرجع سابق، ص 36.
22. الغرياني، مرجع سابق، ص ص 37-38.
23. المرجع نفسه، ص ص 46-47.
24. المرجع نفسه، ص 53.
25. عبد الرحمان الجيلالي، "كيف رسخ المذهب المالكي في المغرب" في مجلة الموافقات.

- العدد3، الجزائر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، 1994م، ص 228.
26. خالد كبير علّال، مرجع سابق، ص 118.
27. المرجع نفسه، ص 118، إن السبب في انقلاب بنو زيري على الشيعة وتحولهم إلى المذهب السني المالكي يعود بالدرجة الأولى إلى فقهاء المالكية الذين استطاعوا أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة ويؤثروا في بعض الوزراء والأمراء ونخص بالذكر العلامة أبا الحسن الزجال الذي اجتهد على الأمير المعز بن باديس في تربيته على منهج أهل السنة والجماعة، استطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في المغرب، ينظر: الصلابي محمد علي، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ط1، القاهرة، مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1427هـ/2006م، ص62.